الخبراء الأجانب ومجتمع المعرفة

د. موزة أحمد العبار

عندما تثار أزمة المعرفة والبحث العلمي، يتبادر للذهن أن أسئلة كثيرة لابد من التصدي لها، وذلك قبل السعي لإيجاد حلول، لأن منطلقات البحث العلمي تقوم على فرضيات ترتبط بالسؤال الأساسي المطروح وهو: ما هي العوامل التي أقعدت البحث العلمي في الوطن العربي بشكل عام وعلى وجه الخصوص في بلادنا، وهل سيمكننا دخول حلبة التنافسية الإقليمية أو الدولية دونما إنجازات بحثية تذكر.

وكيف سيكون بمقدورنا اللحاق بركب دول قطعت شوطاً في إرساء قواعد ومرتكزات قوية للأبحاث العلمية المعمقة، مثل سنغافورة وماليزيا وجنوب أفريقيا، وهي دول ناشئة ولكنها ناشطة في إجراء الدراسات والأبحاث المعمقة،في شتى مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية؟.

قد تتباين الآراء وتتعدد وجهات النظر، حول أسباب تراجع البحث العلمي في بلادنا إلى دون التوقعات، بحيث صار أزمة تستحق الاهتمام من كافة الجهات.في تقديري أن مؤسساتنا التعليمية لم تدرج البحث العلمي ضمن المساقات الدراسية، ولهذا لم يجد حتى طالب الجامعة حصيلة من المعرفة بأساسيات البحث العلمي، وأدى ذلك إلى انعدام ثقافة البحث العلمي في المجتمع، وهي ثقافة يكتسبها أفراد المجتمع منذ مراحل باكرة، عبر عملية التنشئة العلمية، بدءاً من مرحلة التعليم الأساسي حتى المرحلة الجامعية.

ليتم القضاء على حالة فقر الدم المعرفي، على أن يتولى المهمة في كافة مراحلها، جهاز يمكن أن نطلق عليه «مفوضية البحث العلمي»، يناط به وضع استراتيجية وطنية قصيرة وطويلة المدى للارتقاء بالبحث العلمي في بلادنا، مع الوضع في الاعتبار أولويات البحث العلمي، كأن يتم التركيز على القضايا الأكثر إلحاحا والمرتبطة بحركة تطور وتقدم المجتمع.

سواء في الميادين الاقتصادية أو البيئية أو الاجتماعية أو التكنولوجية، وهي مجالات رحبة تحتمل كما هائلا من القضايا والظواهر التي في حاجة ماسة للدراسة والاستقراء والتحليل العلمي، بسبب ارتباطه العضوي باحتياجات المجتمع، فالثابت أن مشكلات المجتمع لا تحل بالقرارات.

وإنما بنتائج الأبحاث والدراسات المعمقة، فنحن في أمس حاجة إلى تنمية رأس المال البشري لبناء مجتمع المعرفة، والسبيل الأمثل في تقديري، يكمن في حصر المبرزين من خريجي الجامعات وابتعاثهم للحصول على درجات علمية في تقنيات البحث العلمي، في كافة ميادين المعرفة ليعهد إليهم بحمل مشاعل الريادة والتميز العلمي.لقد استطاعت بعض الدول الأوروبية إحداث نقلات متتالية في كافة ميادين البحث العلمي، بمبادرات اطلع بها القطاع الخاص بتخصيص نسبة مقدرة من أرباحه لدعم الجامعات ومراكز البحث العلمي، فضلا عن تقديم المنح الدراسية للطلاب المتميزين من خريجي الجامعات.ويذكر الناس رجال الأعمال أمثال «روكفلر وفورد وبيل غيتس» صاحب شركة مايكروسوفت لتقنية المعلومات، الذي أنشأ مؤسسة تحمل اسم زوجته، وذلك للتفاعل الخلاق مع أطروحات المسؤولية الاجتماعية (سز) للشركات الداعية إلى تبني الشراكة الاجتماعية بين مؤسسات القطاع الخاص والمجتمع، وتفعيل الدور الاجتماعي لقطاع الأعمال.

نحن مطالبون بالكف عن الاعتماد المطلق على (خبراء أجانب)، يناط بهم إيجاد حلول لقضايا تدخل ضمن صميم خصوصية مجتمعنا، وهم لا يعرفون عنها شيئا.. ومع ذلك تؤخذ نتائج أبحاثهم وتقاريرهم، ويعتمد عليها في تنفيذ الخطط والبرامج ذات العلاقة بمستقبل بلادنا.والأوفق أن يستفاد من أساتذة الجامعات والخبراء من المواطنين الحاصلين على مؤهلات علمية من أرقى الجامعات في العالم،سواء من الجامعات العربية أو الأجنبية، وهم ولله الحمد كثرة!ولديهم الإلمام الشامل والمعرفة الكافية بخبايا وحوائج وطنهم !الأن أهل مكة أدرى بشعابها، وما لنا بأدعياء الخبرة، ففاقد الشيء لا يعطيه.إننا حقا في حاجة لقرع ناقوس طوارئ لإيقاظ البحث العلمي من حالة السبات العميق، وجعله من أولى أولوياتنا الوطنية ونحن نستشرف طلائع عام جديد.. آملين أن يحمل في طياته حركة تغيير تدفع بمجتمع الإمارات خطوات جديدة للأمام، في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية. فبالبحث العلمي نستطيع عن جدارة دخول مضمار عالم التنافسية، ونحن نتطلع إلى المستقبل الواعد، مع تباشير العام الجديد، واستلهام أطروحات القيادة الرشيدة، لرسم خارطة طريق للارتقاء بهذا الوطن المعطاء، إذ تابعت باهتمام آراء مجموعة من المواطنين والباحثين مؤخرا.

كاريكاتير أعجبني

ماذا يبقى منهم لو جردوا من؟

محمود محمد أسد

كنّا صغارًا ونحن على مقاعد الدراسة ننهل من ينابيع العلم الصافية، عودنا طريّ، ضحكاتنا ربيع يزيّن البيوت وينعش النفوس، أحلامنا إشعاع نورانيّ شفاف، أفراحنا حقول مفروشة بالورود والرياحين، ولما شبّ عودنا وانتفضت قاماتنا، اكتسبنا الكثير من المقولات والمفاهيم، اكتسبنا زادًا يفوق سننًا، اكتسبناه من البيت والحي والمدرسة والشارع، التقطنا كالطيور كل كلمة تلامس أسماعنا، لتعبر عميقًا وتمضي بخيلاء كي تجد مستقرًا لها في قلوبنا وعقولنا. كنا نقبل على الحياة بنهم رغم صخبها وقساوتها، لا ندير لها ظهرنا بل نتحصن بها، ولكن عندما وقفنا أمام مهمات الحياة ودخلنا معتركها –ومعترك الحياة يدعوك لتوظيف ما اكتسبته وادخرته– بحثنا عن تلك المقولات التي مازالت تشع في أعماقنا، بحثنا عنها دون كلل، نقبنا عنها في مسامات الصحف والمنابر والأرصفة، استعرنا مواقف مَن درسونا وأعطونا بسخاء وحب، وجدنا متعة لا تجاريها متعة، وشعرنا بنشوة الوقوف والوجود أمام كل المعوقات التي ترمى في طريقنا.

ولكن حب الوطن والأمة كانا مبعثيّ التحدي والاستمرار، ردّدنا الكثير مما حفظناه ومازلت أردده وأتوقف مليًا أمام مدلولاته الواسعة العميقة، التي مازالت تحفر مسارها في طريق الحياة، هذه الحياة التي تحتاج لفارس نبيل ورجل واع لا ينسى ما قاله وسمعه، بمعنى آخر ذاكرته ليست مثقوبة. ربما يسألني سائل: ما المقولة التي سوف تحدثنا عنها بعد كل هذا التمهيد؟ وإني لأردُ عليه: تركت التخمين لكم، وقد يقول آخر: في الاتحاد قوة وفي التفرقة ضعف، أقول له: هذا أمر يحتاج إلى تفسير، وهو يشغل تفكيرنا ونقاسي غربته في حياتنا، وتدفع أمتنا ثمنه باهظا، ولكن هناك من يهمس في أذني قائلا: بالأخلاق تبنى الشعوب وترقى الأمم، على زعم قول الشاعر: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت × فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا. وإنّي أشدّ على يديه وأضحك من نشوة الإعجاب وأقول له: من قال غير ذلك فهو أحمق وعاق لقيمه ومُثله، وربما تقف واحدة كانت مستسلمة للنوم في صفها، أيقظها صوت الضمير العالمي المخبأ في رغيف خبز يأكله طفل هارب من زحمة الحياة في العراق والكونغو وأثيوبيا، أيقظها صوت أسنانه وعويل معدته فتقول له: اشرح هذا البيت يا فتى: الأم مدرسة إذا أعددتها × أعددت شعبًا طيّب الأعراق، ولكنه تهرب من سؤالها بسؤال آخر فقال لها: من قائل هذا البيت الذي أتعبني حمله في ذهني: فلا نزلت عليّ ولا بأرضي × سحائبُ ليس تنتظم البلاد، فتضحك لدرجة أن عينيها دمعتا وهي تقول له: النتيجة إلى الآن تعادل، فيجيبها: هذا باعتقادك، بيننا جولة وربما جولات. بعد هذا هناك من يقول وقد عصب رأسه براحتيه: "الله يرحم أيام زمان، الله عون على هذه الأيام".

نعم ألف رحمة على أيام زمان، تلك الأيام التي غرست في نفوسنا أنقى العبارات وأسمى المواقف النبيلة فأسأل ذاتي: أين مقولة: "العمل تكليف وليس تشريفا"؟ وإني أبحث عن مدلولها كل يوم وأفتش عن أثر لها، فيلاحقني

> كم من مدَّعٍ للأدب تورّم وانتفخ وما عاد الكرسيُّ والمكتب يسعه، ولكنه لا يملك إلا الطاولة والوظيفة مؤقتا؟

سؤال آخر: ماذا يبقى من الناس الذين نتسابق في تقديم الابتسامة العريضة لهم لو جردناهم من مكاتبهم وامتيازاتهم؟ وماذا يبقى من ذاك الذي ارتدى وظيفته ليستر جهله وحماقته؟ وراح يسيّرها لصالح نفسه ومن يلوذون به ونسي جوهر العمل؟ ومَاذا يبقى من أُمّيّ، أخذ من الطاولة مكانا لتنوب عن جهله وتجاوزاته، ماذا يتبقى منه لو عرّيناه في وضح النهار؟ لقد ظنّ نفسه عبقريّ زمانه، وأنه يفوق نجيب محفوظ في الإبداع والنجومية، ويضع المعرّي في عروة معطفه ولا يشعر به أحد! ولماذا لا يعيش هذا الإحساس المريض وهناك من ينفخ فيه ويلمّعه؟ وهو لا يعرف سوى أسماء الصحف والدوريات التيَ يتبادل معها لعبة المصلحة والمنفعة المشتركة؟ كلما تذكرت هذه العبارة "العمل شرف وتكليف"، هذه العبارة التي يحلو للكثيرين وضعها على جدران مكتبهم، كلما تذكرتها شعرت بالألم؛ لأنها أضحت شعارًا لأصحاب النفوس المريضة الذين يضايقهم نجاح الآخرين، فلا ينافسونهم ولا يباركون عملهم بل يحسدونهم، وهم على مكاتبهم الجرداء يكاد الكرسي أن يلفظهم لثقل طباعهم وغلاظة مخهم وجفاء عبقريتهم! كلما قرأتها ارتسم أمامي هيكل ذاك الأميّ في العلاقات الاجتماعية والأدبية الذي لا يحسن ردّ السلام والتحية، وما إن تدخل عليه حتى تراه يحمل سماعة الهاتف وراح في حديث بعيد عن الوظيفة، يسأل عن مادة له وعن مكافأة وعن.. وقد جلس وراء طاولة تراكمت عليها الأوراق والكتب والمجلات، تراه ولا تراه! تراه في وظيفته وقد استغل الطاولة ونصّب من نفسه رجل شرطة، يفرض ما يريد ويرسّخ ما يريد، ولا تراه إلا في مساحة ضيقة ملأى بالعفن، يحاول العوم فيها والانطلاق منها وليته يقدر العوم!

قال أحدهم: ماذا يبقى من أمثال هؤلاء لو جرّدتهم من وظائفهم ورميتهم في معترك الحياة والإبداع ليُثبتوا وجودهم؟ وأنا أقول له: إننا سنحتاج لمقبرة كبيرة لا تكاد تتسع لشبهاتهم وسرقاتهم، ولن تقدر على هضمهم في حفرها! وماذا يبقى من الكتابات عنهم لو جردوا من صفات لا علاقة لها بالإبداع؟ وهل سيبقى حماس السماسرة نحوهم كما كانوا وراء طاولاتهم؟ أم أنهم سينقلبون عليهم ويتركونهم للبحث عن وافد جديد؟ كم من مدّعٍ للأدب تورّم وانتفخ وما عاد الكرسيُّ والمكتب يسعه، ولكنه لا يملك إلا الطاولة والوظيفة مؤقتا؟ وكم من مشتر للأقلام الرخيصة وقد غاب عنه أنّ ما يكتب يُمحى ولا يبقَى إلا الإبداعُ الحقيقي الصادق؟

أرجوك يا صديقي أن لا تسألني عن اسم واحد منهم فعندها سأدلك إلى برنامج "جائزة المليون" الذي سينصب جسرًا بين جسوره البرّاقة وجسرك الذي يعبره كل المشاة إلى صحيفتك التي خلفها والدك لك ولجماعتك، وما تركت شيئًا لحميد أفعالك، والعمل الحسن الحميد ثروة تفوق كل مهارات الدنيا الزائفة!

ملاحظة: فشة خلق لا تعني إلا المرضى بالتورّم!

jadl@albiladdaily.com

يتم إرسال مقالات الكتاب على العنوان أعلاه

التحالف الإسلامي.. قناعة وثقة

عبد الناصر بن علي الكرت

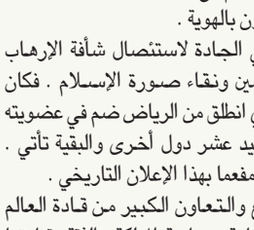

المملكة العربية السعودية هي من أوائل دول العالم التي تصدت للارهاب قولا وفعلا .. بعد أن اكتوت بناره . فسياساتها الداخلية والخارجية في محاربة الإرهاب واضحة منذ سنين لاجتثاث هذا الفكر المدمر . ولها جهود مقدرة في هذا الجانب ، حيث دعت من قبل المجموعة الدولية لمواجهة هذا الخطر الداهم الذي يؤرق الحكومات والشعوب . وقد أثمرت تلك الجهود الموفقة عن إنشاء المركز الدولي لمكافحة الإرهاب تحت إشراف الأمم المتحدة .. ودعمته بمائة مليون دولار لتحقيق أهدافه الهامة . وتظل الأولى عالميا في محاربة آفة الإرهاب . ذلك لأنه ضرب من الفساد في الأرض ولا يقوم به وينخرط في جماعاته وتنظيماته سوى الدمويين الحمقى ! الذينَ لا يحكمهم دين ولا أخلاق ولا إنسانية . ويبقى ضررهم قائما وخطرهم دائما مالم يتم التصدي لهم بقوة ، لأن أصحاب الفكر الضال يسعون للقتل والتعذيب ، يسعدهم التفجير ويبهجهم التدمير ، بصرف النظر عمن يكون المستهدف . فتجدهم يقتلون الأطفال الرضع والشيوخ الركع والرجال والنساء على حد سواء ، دون جريرة سوى أن الجريمة في دمهم ..تجري في عروقهم وتحركهم لأن يقدموا على أفعالهم الشنعاء بكل حماقة وغباء . ولعل ما حدث من تفجيرات داخل المساجد والمرافق شاهد واضح على سوء صنيعهم !

والشيء المحزن والمؤسف أن يكون بعضهم من بني جلدتنا ويدعون أنهم ينتمون إلى ديننا الحنيف ، وهم يعلمون أولا يعلمون أن الدين الإسلامي منهم برآء . فهو دين الرحمة والسلام ، ولا يقبل ما يقوم به أولئك الشراذم من السفاحين القتلة الذين تجردوا من المعاني الإسلامية والقيم الإنسانية . فهم بأفعالهم القبيحة يشوهون صورة الإسلام الناصعة أمام العالم ، مما أعطى مبررا لمسؤولي بعض الدول لأن يلصقوا تهمة الإرهاب بالإسلام مع شديد الأسف . لأن الغالبية من أتباع تلك التنظيمات مسلمون بالهوية .

ولم تنتظر حكومة المملكة وهي الجادة لاستئصال شأفة الإرهاب والحريصة على سمعة المسلمين ونقاء صورة الإسلام . فكان التحالف الإسلامي الجديد الذي انطلق من الرياض ضم في عضويته أربعا وثلاثين دولة وكسب تأييد عشر دول أخرى والبقية تأتي . وكان الارتياح كبيرا والشعور مفعما بهذا الإعلان التاريخي .

ولا شك أن التجاوب السريع والتعاون الكبير من قادة العالم الإسلامي يأتي من منطلق القناعة بسياسة المملكة والثقة بقيادتها الحكيمة في العهد السلماني المجيد .. عهد عواصف الحزم ورايات العزم . فهي تمسك بزمام المبادرة لمشروع متكامل غاية في الأهمية ، وتسير به نحو الأمام بثقة واقتدار بعيدا عن التبعية والانقياد للآخرين ، خاصة وأنها ترى دولا تمارس سياسة مزدوجة ، فهي ضد الإرهاب نهارا وتدعم أصحابه في الظلام لتحقيق أهدافها وأطماعها التي لم تعد خافية . والشواهد قائمة والتاريخ كشاف لكل الأفعال المخزية ولو بعد حين !!

والحقيقة التي يجب أن تقال أن المملكة بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز تصنع تاريخا جديدا مشرقا بتوحيد الكلمة والصف وبناء قوة إسلامية رادعة لكل التنظيمات الإرهابية .بل قادرة أيضا على مواجهة جميع التحديات المحيطة . وهذا ما يأمله الشارع الإسلامي لإظهار حقيقة الإسلام دين السماحة والوسطية والاعتدال .

ولا شك أن هذا النجاح الرائع يعد تطورا مهما جداً طالما انتظرته الشعوب الإسلامية . ويؤكد الدور المحوري الكبير للملكة في صياغة الواقع الإسلامي القادم فكريا وسياسيا وأمنيا وعسكريا ، وهو ما يجب أن يتنامى لتكتمل المنظومة الإسلامية وتستعيد الأمة هيبتها .

قمة المناخ.. وتحول العلاقات الدولية

د. محمد الصياد

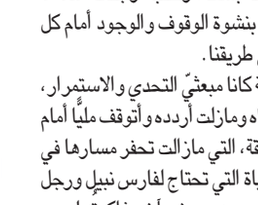

المؤتمر السنوي لأطراف اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية لتغير المناخ الذي أنهى أعماله في العاصمة الفرنسية قبل أيام (من ٣٠ نوفمبر/ إلى ١٢ ديسمبر/ ٢٠١٥)، تحول إلى مؤتمر قمة عالمي، بحيث شهد مشاركة ١٥٠ من رؤساء الدول والحكومات على رأسهم الرئيس الأمريكي باراك أوباما والرئيس الروسي فلاديمير بوتين والرئيس الصيني جي جينبنغ ورئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي وغيرهم. ومع أن القضية المكرس لمناقشتها وإيجاد الحلول العالية لها هي ظاهرة تغير المناخ في العالم، إلا أنه في جوهره كان مؤتمرا اقتصاديا عالميا بامتياز من حيث تعلقه مباشرة بطريقة اقتسام وتوزيع الكلفة الاقتصادية العالمية الناتجة عن المشكلة على الدول المشاركة في المؤتمر ،الأعضاء في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية لتغير المناخ.

ونظرا للتكلفة الباهظة لهذه العملية، ولأن إنجازها سوف يستغرق كل العقود الثمانية المتبقية من القرن الحالي – في حال التزمت كافة دول العالم بلا استثناء بتنفيذ التزاماتها، لاسيما منها التزامات التخفيف(Mitigation)، والأخرى الرديفة لها وهي الالتزامات المالية المتصلة بالاستثمار في مشاريع ومبادرات خفض انبعاثات غازات الاحتباس الحراري (٦ غازات أبرزها غاز ثاني أكسيد الكربون)، والالتزامات المتصلة بنقل تكنولوجيا المناخ وتدابير مكافحة هذه الظاهرة التي يقول العلماء في الهيئة الحكومية (الدولية) لتغير المناخ، المكلفة من الأمم المتحدة استشاريا بمتابعتها والتقرير الدوري بشأنها إنها سوف تفضي إلى غمر دول جزرية وشاطئية بالمياه وإلى اختفائها من الوجود فإن هذه القضية قد غدت أكبر بؤرة للصراع بين القوى الكبرى (الولايات المتحدة وحليفاتها الأوروبيات) والقوى الصاعدة (الصين والهند والبرازيل وجنوب إفريقيا).. وبصفة عامة بين الدول المتقدمة والدول النامية.

> الاتفاق أُنجز، ولسوف يغير مسار العلاقات الدولية على المدى المتوسط والبعيد (أقصاه 2030) بصورة كلية، خصوصاً بالنسبة لمنطقتنا العربية

كان هذا المؤتمر مكرس، على غرار مؤتمر كيوتو لعام ١٩٩٧، لإبرام اتفاق جديد يحل محل بروتوكول كيوتو.

وقد جرى التفاوض عليه لمدة ٤ سنوات (من أواخر عام ٢٠١١). ولذلك حشدت الولايات المتحدة التي كانت رفضت الانضمام إلى البروتوكول، ومعها الاتحاد الأوروبي، قواهما الذاتية ونفوذهما على مجموعة كبيرة من الدول النامية، من أجل إنهاء الإعفاء من الالتزامات بخفض الانبعاثات الذي تمتعت به الدول النامية في بروتوكول كيوتو.

وعلى مدار أسبوعين من المفاوضات الشاقة التي تواصلت ليل نهار في ضاحية لابورجيه الباريسية، خصوصا في أسبوعها الثاني حين انتقلت إلى مفاوضات عالية المستوى بمشاركة المستوى السياسي، كانت الدول النامية المؤتلفة في مجموعة ٧٧+ الصين، تعمل من أجل إلغاء وإعادة صياغة وتحسين صياغة مجمل نص المسودتين الأولى والثانية من الاتفاقية. وكان يمكن للمفاوضات أن تنهار في أي لحظة في ضوء نص المسودة الأولي الذي قدمته السكرتاريا ورئاسة المؤتمر (سكرتارية اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية لتغير المناخ ورئاسة المؤتمر ممثلة في لوران فابيوس وزير الخارجية الفرنسي الذي تستضيف بلاده المؤتمر)، والذي اختلف بصورة مفاجئة عن المسودة التي كانت توصلت إليها أطراف التفاوض في الاجتماعات التمهيدية التي جرت في بون في شهر أكتوبر الماضي.

ولكن رئاسة المؤتمر، ممثلة خصوصاً في لوران فابيوس ومساعديه في وزارة الخارجية الفرنسية، كانوا فعلا على مستوى المسؤولية والتحدي، حيث أظهر فابيوس مقدرة رائعة في استيعاب وتفهم مواقف كافة أطراف التفاوض. ونحن في مجموعة التفاوض العربية تحت مظلة الجامعة العربية، لم نستطع كتمان ارتياحنا لما أبداه فابيوس من تقدير وتفهم لعكس المصالح العربية في الاتفاق الجديد، حيث حرص على الالتقاء بالمجموعة العربية أكثر من مرة من أجل تضمين مطالبها بقدر الإمكان في الاتفاق.

لقد تطلب الأمر إجراء عملية التفاوض على مسارات عدة. فبخلاف المسار الرئيسي المتمثل في مجموعات التفاوض المتخصصة في كل محور رئيسي من محاور نص الاتفاقية، تم فتح مسارات فرعية مصغرة للتفاوض والتوصل إلى توافق بين الأطراف المختلفة ومن ثم إعادة النتيجة إلى مسار التفاوض الرئيسي. وبعد خمسة أيام من بدء عملية التفاوض تم التوصل إلى النسخة التوافقية الأولى من الاتفاق، ليتم فتح مسار تفاوضي جديد بمشاركة المستوى السياسي هذه المرة، أي الوزراء المعنيين. ولم يكن هذا المسار بحد ذاته كافيا لتقريب وجهات النظر بين قطبي التفاوض الرئيسيين الدول المتقدمة والدول النامية، فكان أن فتحت الرئاسة مسارا ثالثا مساعدا هو مسار اللقاءات مع رؤساء مجموعات التفاوض والعمل على تضمين مواقفها بقدر الإمكان في نص مسودة الاتفاقية.

وإضافة إلى ذلك كان هناك مسار تفاوضي موازٍ غير معلن هو مسار التفاوض خلف الأبواب المغلقة، والذي يعود إليه الفضل في مسابقة الوقت الضيق المتاح أمام المفاوضين للتوصل إلى النسخة الأخيرة التوافقية للاتفاق، رغم أن أطراف التفاوض اضطرت لتمديد وقت انعقاد المؤتمر ليوم واحد.

لذلك حين حان الوقت لعرض المسودة النهائية على المشاركين في الجلسة العامة مساء يوم السبت ١٢ ديسمبر ٢٠١٥، كان الجميع مدركاً أن جميع الدول المشاركة في المؤتمر ستعطي موافقتها على الاتفاق، وإن كان حدث بعض التعطيل المفاجئ الذي أحدث بعض البلبلة داخل القاعة بسبب خلاف بين الصين والولايات المتحدة حول مفردة وردت في البند الرابع من المادة الرابعة في الاتفاقية وتتعلق بمدى إلزامية ومسؤولية الدول المتقدمة عن تقديم التمويل اللازم للدول النامية لتمكينها من المشاركة في الجهد الدولي لخفض الانبعاثات. وكما توقعنا سابقاً فلقد ألقت الولايات المتحدة بكل ثقلها في هذا المؤتمر ،حيث حضر وزير خارجيتها جون كيري إلى لابورجيه وشارك شخصياً في المفاوضات، واستخدم لغة حادة أحيانا مقابلة للغة القوية التي استخدمها الوزيران الصيني والهندي في جلسة التفاوض الأخيرة.وحتى حين وافقت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي على تعديل النص ،ليوافق توجهات الصين والهند في التعاطي مع الانبعاثات، وانتقل الجميع إلى الجلسة العامة لإعلان الاتفاق ، كان وزير الخارجية الأمريكي جون كيري يتنقل داخل القاعدة ويتحدث مع رؤساء مجموعات التفاوض للاطمئنان إلى عدم بروز تحفظات في اللحظة الأخيرة قبل إقرار الاتفاق.

الاتفاق أنجز، ولسوف يغير مسار العلاقات الدولية على المدى المتوسط والبعيد (أقصاه ٢٠٣٠) بصورة كلية، خصوصا بالنسبة لمنطقتنا العربية لاسيما للدول العربية البترولية.

اللغة العربية وتحديات الفرانكوفونية

د. لطفي زغلول

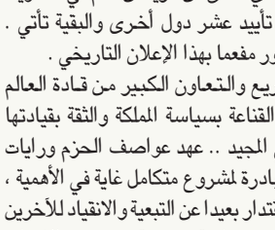

في كل عام ومنذ العام ١٩٩٧ ، وهذه السنة الثالثة عشر له على التوالي ، ينعقد مؤتمر الفرانكوفونية بمشاركة سبعين دولة، شاركت في اعماله بعض من الدول العربية التي كانت تحكمها فرنسا ، الى جانب الدول الأخرى الناطقة بالفرنسية. ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن جدول اعمال المؤتمر، ولا القضايا التي تناولها وامعن في بحثها. ان ما يهمنا منظور واحد يخص اللغة العربية التي تتعرض لتحديات اللغات الأجنبية ، ومنها الفرنسية لغة الفرانكوفونية.بداية، فان الفرنكوفونية مصطلح فرنسي يعني مجموعة الدول والشعوب الناطقة باللغة الفرنسية وتشمل الشعوب الناطقة اصلا باللغة الفرنسية على امتداد الرقعة الجغرافية التي تشغلها من الكرة الارضية بقاراتها الست، مضافا اليها المستعمرات الفرنسية السابقة. وقد سبق وان عقدت الفرنكفونية مؤتمر قمتها التاسع، في العام ٢٠٠٤ ، في عاصمة عربية هي بيروت. ويمكن قراءة الدوافع لتأسيس هذه المنظمة من خلال حرص فرنسا على لغتها الفرنسية في الدرجة الاولى، وعلى ثقافتها كون اللغة هي مفتاح اية ثقافة انسانية. ولا يخفى ان هناك دوافع اخرى تجسدها الرغبة في الانتشار والتوسع والتواجد على اكبر مساحة جغرافية، وفي ذات الوقت فان عنصر التنافس بينها وبين اللغة الانجليزية الاكثر هيمنة وانتشارا أحد هذه الدوافع، ولا ينبغي اغفاله لأسباب كثيرة. وعلى ما يبدو فان الانجليز لم يفكروا بايجاد مؤسسة "أنجلوفونية" لغوية ثقافية، فلغتهم أصبحت على مدار الازمنة الحديثة اللغة الرسمية الثانية لمعظم دول العالم وفي أحيان اخرى اللغة الرسمية الاولى. وفي المقابل فقد اوجدوا بدلا منها "الكومون ولث" الذي يضم كل المستعمرات البريطانية السابقة ما عدا العربية، وهي منظمة اشتق اسمها من الثروة المشتركة.ما يهمنا هنا هو منظومة الدلال والحظوة والاولوية والمكانة التي تحظى بها هاتان اللغتان في العالم العربي على حساب اللغة العربية التي يفترض وفقا للدساتير العربية انها اللغة الرسمية الى جانب كونها لغة القرآن الكريم، والتي اصبحت مساحة تراجعها تزداد مع الايام شيئا فشيئا جراء عدم وجود قوانين او انظمة عربية تهدف الى حمايتها من الغزوين اللغوي والابجدي الفرنسي والانجليزي.

ومما لا شك فيه ان اللغة العربية تعاني هذه الايام جراء اهمالها من قبل ابنائها سواء كان ذلك بقصد او بدونه. وهنا لا بد من الاشارة الى التقصير الذي تتصف به المجامع اللغوية العربية والتي على ما يبدو انها منشغلة بقضايا لغوية مجردة نظرية لم تصل الى سقف خطورة ما تتعرض له اللغة العربية.

وكم يتحسر الانسان العربي الغيور على لغته وثقافته كون العالم العربي يفتقر الى مؤسسة قومية على نمط الفرنكوفونية. ان مثل هذه المؤسسة لو كتب لها ان ترى النور ذات يوم فسوف تكون متعددة الاهداف. فهي من ناحية ستعمل على حماية اللغة العربية وتطويرها وايلائها المكانة التي تستحقها، ومن ناحية اخرى توسيع الرقعة الجغرافية التي تغطيها، وكذلك تسهيل انتشارها وبخاصة بين الشعوب الاسلامية، كون العربية هي لغة القرآن الكريم والصلاة والأذان والعلوم الدينية الاخرى. ولا تقف مثل هذه المؤسسة عند هذه الحدود المذكورة فحسب، بل ثمة اهداف قومية اخرى يفترض ان تصل الى تحقيقها. فالعالم العربي بحاجة الى توحيد مشروعاته ورؤاه ومشاهده الثقافية في اطار يؤمن بالانفتاح على الثقافات واللغات الاخرى دون المساس بالجذور تحت مظلة قومية تكون قادرة على اثبات وجودها والتصدي للتحديات الثقافية الواردة من خارج حدود العالم العربي، سواء تلك الآتية غزوا أو جراء تطور تقنيات الاتصال بين الشعوب. وقد يكون من اهم اهدافها–والعولمة الثقافية آخذة في الاجتياح– ان تساهم وتشارك كيلا تذوب فيها وتمحي شخصيتها وتفردها وتميزها وخصوصيتها.ان العالم العربي يتعرض لموجة غزو لغوي ثقافي لا انقطاع لها. ولعل أخطر ما في الامر وجود شرائح مجتمعية عربية قد أخذت على عاتقها عملية التسويق الثقافي واللغوي غير العربي متحمسة للتبشير به على انه سمة العصر والعصرنة والرقي والانطلاق الى العالمية.وفي هذا الصدد ليس ثمة عربي غيور على عروبته ولغته من يرفض التطور الثقافي واللغوي الايجابي للعالم العربي، ومن المؤكد ان ازدهار سوق اللغات والثقافات

> اللغة العربية، وهي مفتاح الثقافة اصيلها وحديثها، وهي مدخلها ومستقرها، تستحق من ابنائها مؤسسة على نمط الفرانكوفوني

الاجنبية فيه لا يشكل ادنى مشكلة لو ان هناك جهاز حماية للغة والثقافة العربيتين اللتين تتعرضان للتقلص والانكماش والتراجع والشعور بالنقص والدونية.

ان ما تتعرض له اللغة العربية تحديدا– وهي من أسس الكيان القومي– باعتبارها احدى اعمدة الثقافة العربية الرئيسة خطير للغاية. والخطورة هنا تنبع من كونها تتأكل في اكثر من موقع بدءا بمناهج تدريس اللغة العربية العقيمة غير المتطورة في المؤسسات التعليمية التي تفرز اجيالا لا تتقن لغتها، ومرورا بطبقة المثقفين العرب الذين على ما يبدو ان غالبيتهم في حالة خصام مع قواعد هذه اللغة نحوها وصرفها ، ووقوفا عند العاملين في حقل الاعلام الفضائي الذين ينتهكون حرمات قواعدها عشرات المرات في مراسلاتهم ونشراتهم وبرامجهم، وانتهاء بالاسواق التجارية التي غزتها اللافتات والتسميات والعلامات التجارية غير العربية.

ومثالا لا حصرا فثمة اسواق تجارية في عواصم ومدن عربية لا يوجد ادنى اثر فيها للغة العربية وكأنها متواجدة في عواصم ومدن اوروبية. الا ان الأخطر من هذا كله هذا الكم من الاعلانات التجارية والدعائية الاخرى بالغة العامية الركيكة، سواء كانت شاخصات او لافتات، او منشورة في الصحف والمجلات، او المطبوعات الأخرى.

ويكتمل مشهد مأساة اللغة العربية اذا ما اضيف اليه ما يدور في ساحة الاعلام الفضائي العربي الاوثق التصاقا بالجماهير العربية والاعمق تأثيرا فيها. فمن بين ما يقارب المائة وخمسين فضائية عربية تحمل اكثر من سبعين منها اسماء ورموزا بلغات اجنبية نصا وابجدية. ومن هذه الفضائيات ما يستخدم الفرنسية او الانجليزية في واجهات برامجها وفواصلها وشاراتها الخاصة. والأنكى من ذلك كله، تقديم موجات متلاحقة من الاغاني المصورة العربية "الفيديوكليب" مذيلة باسماء الشركات المنتجة والاغنيات والفنانين والفنانات وبقية الكوادر والعناصر الفنية الاخرى باللغة الانجليزية.

في العالم العربي هناك الكثيرون الذين يغارون على لغتهم ومنظومة ثقافتهم ويستشعرون المخاطر التي تحيق بهما. وهم يعلمون يقينا الدوافع الكامنة وراء هذا التراجع الذي منيت به اللغة العربية والتي يمكن تصنيفها بالغزو الثقافي الذي يعمل على الاقتلاع من الجذور والخروج من الجلد، والارتماء في احضان العولمة التي لا تعترف بالتعددية الثقافية، ساعية الى نشر ثقافة الأقوى.

لقد ادرك الاستعمار ان الثقافة هي العصب الذي يمكن مهاجمته وتخديره واماتته بهدف وضع "حشوة ثقافية بديلة" تحمل في تركيبتها عناصر ضعف الانتماء والتقليد الاعمى والشعور بالنقص والدونية والعجز في مقابل فوقية حضارة الآخر– وبمعنى اصح الحضارة الغربية– ولغاته وثقافته.كلمة أخيرة، اننا اذا كنا غيورين حقا على لغتنا العربية ومنظومة ثقافتنا بالتالي ونخشى عليهما من التراجع والذوبان في الآخر، واذا كنا نريد ان نكون حضاريين وعالميين فالانطلاق يكون من الجذور والأصالة والمحلية والخصوصية والتميز والفرادة. وباستطاعتنا ان تكون لنا مؤسستنا الثقافية الخاصة على نمط الفرنكوفونية على طريق تجسيد الهوية العربية وتعميق الانتماء لها، وايجاد المكانة اللائقة للأمة العربية الناطقة بالعربية بين أمم العالم وشعوبه الاخرى.

ويكفي اللغة العربية شرفا وكرامة انها لغة القرآن الكريم، وان مليارا وثلاثمائة مليون مسلم يشكلون احتياطيا استراتيجيا لنشرها بينهم. لكن المطلوب أولا ارادة جماهيرية نابعة من حس قومي عقائدي انتمائي تجاه اللغة العربية بصفتها مفتاح الشخصية الثقافية العربية، وعنصرا هاما من عناصر وجودها وكرامتها.

ان قرار المستوى السياسي في تقديمها، والعمل الجاد لكي تأخذ المكانة التي تستحقها، والدفاع عنها وحمايتها يأتي في المقام الأول دون أدنى شك، وينبغي تفعيله على الصعد القومية. ان اللغة العربية، وهي مفتاح الثقافة اصيلها وحديثها، وهي مدخلها ومستقرها، تستحق من ابنائها مؤسسة على نمط الفرانكوفونية.